المرجعيات الفكرية و أثرها في بناء الخطاب النقدي عند "حبيب مونسي"

Intellectual references and their impact on constructing critical discourse at Habib Mounsi

ط د- كمال بالمهدي [1،*]، د- علي كرباع [2]

[1]جامعة الوادي ، (الجزائر)، Kamel-belmehdi@univ-eloued.dz

2جامعة الوادي ، (الجزائر)، korbaaali@gmail.com

مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقده

تاريخ الإيداع: 2021/05/04 **تاريخ المراجعة**: 2021/06/26 **تاريخ النشر**: 2021/09/30

ملخص:

يسعى هذا المقال إلى مساءلة الفكر النقدي عند الكاتب والناقد"حبيب مونسي" ومدى تأثره بالمرجعية التراثية والغربية, فمن خلال تعدد المنابع والفروع يستبان التنوع المعرفي الذي يزخر به سواء في الفكر الغربي أم العربي.

ولا يخفي على أحد- كاتبا كان أم ناقد- ذلك الطريق البيّن الذي يسلكه المبدع ,بل ويستسقي منه في كل مرة أفكاره ورآه,ويجعل منها حجر الأساس الذي لا بدّ منه في تبيان الحجج والبراهين النقدية, فتكون بذلك المرتكز الرئيس لعملية الإبداع في شتى مجالاته.

فمن هذا المنطلق وأساسا على ما سبق أردنا أن نحيط بالمرجعيات التي انطلق منها حبيب مونسي في التأسيس لخطابه النقدي. وبما أنّه لابدّ لكل خطاب من مرجعية يتكئ عليها, كانت المعالجة لهذه المرجعية بمحاولة بلورتها وما يتماشى والنص العربي في حداثته ومعاصرته.

فـ"حبيب مونسي" حاول جاهدا أن يمزج بين التراث والحداثة في تأصيله لخطاب نقدي عربي ممنهج؛ وذلك ما يبدوا جليا من خلال تمسكه بالتراث واستثماره قراءة واستنباطا وتناولا وتوظيفا,فهو بذلك لا يقل أهمية عن الفكر الحداثي الراهن.

الكلمات المفتاحية: الخطاب, المرجعيات الفكرية, حبيب مونسي, البنية, النقد.

Abstract

This article seeks to investigate the critical thinking of the writer and critic Habib Mounsi and the extent to which he has been affected by traditional and Western heritage. His cognitive diversity, whether in Western or Arab thought, emerges from the multiplicity of sources and branches. This path which a talented writer takes is evident to everyone, writer or critic. It is the reservoir from which he draws his thoughts and which constitutes the cornerstone of providing and explaining the arguments and critical proofs, so that it will be the main basis for the creativity

*المؤلف المراسل

process in its various fields. From this standpoint and starting from the above-mentioned statement, we wanted to survey the references from which Habib Mounsi set out in establishing his critical speech. Since every discourse relies on a reference, the treatment of this reference involved an attempt to adapt it to the modern and contemporary Arabic text. Habib Mounsi tried hard to combine heritage and modernity in establishing for a systematic Arab critical discourse. This is evident through his adherence to the heritage and its investment in reading, deduction, handling and employment, as it is thus no less important than the current modernist thought.

Keywords: discourse, intellectual references, structure, criticism.

مقدمة

إنّ المتتبع لمفهوم الخطاب النقدي ببعديه العربي عامّة,والجزائري خاصة يلحظ تلك التجاذبات التي تميز بناءه الداخلي والخارجي على حد سواء ؛شكلا أو مضمونا وهذا ربما يعود إلى طبيعة النّص في حد ذاته, وبما أن الأدب في المشرق نال حظه من القراءة والاستقصاء والنقد، فإن ذلك أدى إلى تطور آلياته التعبيرية وقدراته الدلالية، بينما ظل الأدب الجزائري يعاني بحجة عدم توفر المصادر والمراجع حتى غدا مجالا للتهميش على الرغم من تلك الاشراقات التي تلوح هنا وهناك، سواء أكان ذلك في مجال الشعر أم النثر.

بيد أنَّ عدم الاهتمام من طرف الباحثين أدى إلى عدم وجود خطاب نقدي جزائري خصوصا قبل فترة الاستقلال، باستثناء ما كان ينشر في بعض الصحف والمجلات نشرها مجموعة من المشايخ الذين لم يهتموا بالنقد كثيرا من أمثال "ابن باديس"، و"البشير الإبراهيمي"، و"رمضان حمّود" و"محمد السعيد الزاهري"، وغيرهم. ومع صدور أول كتاب نقدي لـ"أبي القاسم سعد الله" الذي جاء بعنوان: (محمد العيد آل خليفة – رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث)، بدأت تلوح في الأفق إشعاعات الأدب الجزائري بروح ممنهجة شيئا فشيئا. لكن ما يؤخذ عنها أنها ظلت حبيسة الأدراج؛ لأنها لم تجد من يدفع بها نحو الإطار العام لمناهج النقد الأدبي.

من هذا المنطلق أخذ نقادنا قلم الكفاح ,بل وأصبحنا نبحث عن السبق في البحث عن منهج يصح لمعالجة نصوصنا العربية وتجعل منها اشعاعا في سماء الابداع, ومن هؤلاء نذكر ناقدنا الفذ الدكتور"حبيب مونسي", وبما أنّه لابدّ أن تكون لكل انطلاقة من منطلق ومرتكز تأخذ منه أساسياتها, فإنّ دراستنا هذه تمحورت حول المنطلقات والمرجعيات التي استقى منها "حبيب مونسي" آراءه وأفكاره, فهل هي تراثية ذات أصالة بجذور تاريخية بحتة, أم هي غربية بسبق المنهج والتحول, أم ذات تأثر بنقادنا العرب المحدثين, فكل هذا وذاك سنحاول الإجابة عليه في متن دراستنا هذه بحول الله,والمعنونة بـ:المرجعيات الفكرية وأثرها في بناء الخطاب النقدي عند حبيب مونسي, والتي تسعى بدورها إلى معرفة أصول الخطاب عند حبيب مونسي في إطاره العربي والغربي, وأهم المرجعيات التي حاول أن يرسي عليها ناقدنا الجزائري معالم هذا الخطاب , مع محاولة جعل منهج خاص يكون صالح لطبيعة نصوصنا العربية تنظيرا وتطبيقا. وبالتالي كان المحور الأساس في هذه الدراسة حول:

بنية الخطاب في الفكر الغربي.

بنية الخطاب في الفكر العربي.

مرجعيات الخطاب النقدي عند "حبيب مونسي".

أولا: الخطاب في الفكر الغربي:

إن رواج مفاهيم الخطاب وتعددها وتنوعها عند النقاد الغربيين أخذ طابعا ذا تدرج زمكاني، بدءا من متتالية الجمل إلى الحوار، فالمونولوڤ مرورا بالملفوظ والتلفظ، وما يدخل في علاقة بأحدهما(1)، وغير ذلك من المفاهيم.

ويعرّف "بنفنيست" الخطاب بقوله: «كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما»(2).

والحقيقة أن أصل مفهوم الخطاب في التراث الغربي كان وما يزال حتى اليوم يرتد ويتصل بذلك الأصل الفلسفي على الرغم من تطور المفهوم وتغيره، « إن مفهوم الخطاب يظهر أو ما يظهر عند "أفلاطون"، حيث يتماثل المقال(*) مع العقل Logos، حيث يتماثل المقال مع العقل، وهنا بذلت أول محاولة لضبط المقال وعقلنته وبناء منطقه على قواعد تستمد من داخل المقال نفسه من أصل خرافي أو وضعي يفرض بداهته على المقال، وهو ما اعتبر بداية تبلور المقال الفلسفي»(3).

أما في عصر النهضة فقد جاء كتاب "ديكارت": خطاب المنهج ليشكّل علامة هذا العصر البارزة، فقد أراد "ديكارت" أن يتجاوز رجال الكنيسة ويُسمع صوته لعامة المثقفين(4).

وأهمية كتاب "ديكارت" تكمن في كونه تأسيسا للخطاب أكثر مما هو تفسير وتحديد للمفهوم ذاته.

أما الظهور الفعلي لمفهوم الخطاب، وتبلوره بصفة إبستمولوجية فكان مع مؤلفات الناقد الفرنسي "ميشال فوكو"، حيث يقول في هذا الصدد: «لا بد من اختزال المعنى المتذبذب للخطاب ... باعتباره النطاق العام لكل الجمل، وأحيانا باعتباره مجموعة متفردة من الجمل، وفي أحيان أخرى باعتباره عملية منضبطة تفسّر عددا من الجمل»(5).

أما الناقد الأمريكي "زليج هاريس" فيعرفه بقوله: «هو ملفوظ طويل أو متتالية من الجمل تكوّن جملة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية، وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض»(6).

ويرى "دوسوسير" أن الخطاب مرادف للكلام. أما "تودوروف" فيعتبر الحدث اللساني العادي خطابا شفافا»(7).

ثانيا: الخطاب في الفكر العربي:

يتحدد مفهوم الخطاب في الثقافة العربية بوصفه مصطلحا واضحَ الدلالة ويقترن في أغلب الأحيان بوصف آخر، مثل الخطاب الثقافي، الخطاب الديني، الخطاب السياسي... فانطلاقا من القرآن الكريم، واعتمادا على التفاسير التي قامت على بعض آياته، حيث يقول عز وجل: (فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ)، [سورة ص، الآية 22]، وقوله تعالى: (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ) [سورة ص، الآية 19].

فهذا "الزمخشري" يفسر فصل الخطاب بقوله: «إنه البيّن من الكلام الملخص، الذي يتبينه من يخاطَب به، ولا يلتبس عليه»(8).

ومما لا شك فيه أن لفظ الخطاب عند العرب استأثر لنفسه تعريفات متنوعة ومتفاوتة، فالآمدي يعرّفه تعريفا جليا، فهو عنده اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من متهيئ لفهمه»(9).

ولم يبتعد "الجويني" عن هذا المفهوم كثيرا، حينما عبّر عنه بقوله: «الكلام والخطاب والتكلم والتخاطب، والنطق واحد في حقيقة اللغة، وهو ما به يصير الحي متكلما»(10)، فهو هنا وازى بين الكلام والخطاب والتكلم والتخاطب.

أما "سعيد يقطين" فيرى أن الخطاب «مظهر نحوي يتم بواسطته إرسال القصة»(11). ويعرّفه "سعد مصلوح" على أنه «رسالة موجهة من المنشئ إلى المتلقي تستخدم فيها الشفرة اللغوية المشتركة بينهما، ويقتضي ذلك أن يكون كلاهما على علم بمجموع الأنماط والعلاقات الصوتية والصرفية والدلالية التي تكوّن نظام اللغة، (أي الشفرة المشتركة)، هذا النظام يلبّي متطلبات الاتصال بين أفراد الجماعة اللغوية، وتتشكل علاقاته من خلال ممارستهم كافة ألوان النشاط الفردي والاجتماعي في حياتهم»(12).

بينما نجد الناقد "صلاح فضل" يستخدم مصطلح "القول" عوضا عن الخطاب، وذلك عند حديثه عن القصة فيقول: «يتم التمييز في العمل القصصي بين مظهرين مختلفين: الأول الحكاية، وهي الأحداث المروية والشخصيات المتحركة، وغير ذلك من العالم الخيالي الذي يخلقه المبدع. وإن كانت تستثير الواقع.

أما المظهر الثاني للقصة فهو "القول" أي هذه الكلمات الواقعية الموجهة من الكاتب إلى القارئ»[13].

ثالثا: المرجعيات التراثية:

يقول "حبيب مونسي" في مقدمة كتابه "فلسفة القراءة وإشكالية المعنى": « إننا نقيم هذا البحث من خلال الإطار العام الذي عرضنا على التنقيب عن المرتكزات التي جعلت القطيعة مع الفكر المسيحي اللاهوتي ممكنة ... كما نقيمه من خلال المواجهة والمعايشة مع الغرب والتراث على تقديم نموذج للقراءة نشهد من خلال إجراءاته ومفاهيمه حضورين:

حضورا غربيا بما انتهى إليه من رؤية ومنهج.

وحضورا تراثيا بما يقوم به في الذات العربية من تقديس ونقد واستفادة»(14).

من هذا المنطلق تظهر لنا تلك الخلفية التي ينطلق منها الناقد حبيب مونسي سواء من التفرع الغربي أو الامتداد التراثي.

لقد أدّت البيئة الدينية دورا بارزا في شخصية حبيب مونسي، وكان لها الأثر الكبير في تشبعه بالثقافة الإسلامية، ويظهر ذلك من خلال حفظه للقرآن الكريم في كتّاب قريته الصغيرة، المسماة "سيدي خالد"، الشيء الذي ساعده في إتقان اللغة العربية الفصحى.

وعلى الرغم من أنّ دراسته في المراحل الأولى كانت باللغة الأجنبية إلا أن تمسكه باللغة العربية الفصحى يظهر جليا في مؤلفاته الأدبية والنقدية. ولعل هذا يرجع إلى إيمانه الشديد وتمسكه القوي بلغة القرآن الكريم، هذا الأخير الذي جعل منه فاتحة، بل مصدرا أوَّلَ في جل مؤلفاته، من خلال اعتماده على الحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى، ثم الصلاة على الحبيب المصطفى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في مقدمة كتبه.

ومن المؤلفات الدالة على ذلك نذكر:

المشهد السردي في القرآن الكريم، قراءة في قصة سيدنا يوسف.
التردد السردي في القرآن الكريم، مقاربة لترددات السرد في قصة سيدنا موسى.
سيمياء النماذج البشرية في القرآن الكريم.
المتّكأ، مقاربة مشهدية لمجلس النسوة في قصة سيدنا يوسف (مقال).

وتظهر شخصية "حبيب مونسي" الدينية من خلال حديثه عن الفكر الإسلامي وعلماء الدين مثل: "ابن خلدون"، و"الأمير عبد القادر"، و"البشير الإبراهيمي". وقد حدّثنا عن فكر هؤلاء في كتابه المعنون: **مراجعات في الفكروالأدب والنقد**، تحت عناوين كبيرة خصصها لكل واحد منهم نذكر منها:

- تقويم الفكر الديني عند "ابن خلدون".
- الدين حياة، التصوف، الفعل والعقلنة، الدين دولة.
- الآخر في فكر الأمير عبد القادر من خلال المراسلات... كيفية التعامل مع الآخر، الوعض والتحذير، التهديد والوعيد، ما حكم الداخل في الآخر باختياره، فقه النوازل عند الأمير.
- مفهوم الاستقلال ورؤى المستقبل في أول خطبة للبشير الإبراهيمي (هندسة الخطبة، التقنيات الأولى، استراتيجية بناء المستقبل، إستراتيجية النداء)[15].

وما نشره "حبيب مونسي" في جريدة "النصر" يبين مدى اهتمامه واعتماده على الموروث اللغوي العربي، حيث يقول: «يراودني دائما شعور بالامتلاء حين أقف أمام اللغة العربية، وهي تتجلى في أبهى صورها التعبيرية في القرآن الكريم، ألفاظاً وآياتٍ وفي الحديث النبوي الشريف حكمةً وإرشاداتٍ، وفي أقاويل العرب شعرا نثرا، فأجدها وكأنها أحاطت بالأفكار إحاطة السوار بالمعصم، فأسأل نفسي عن ماضيها ومصدرها عن الروافد اللغوية التي صبّت رحيقها في حوضها، وأنها كسائر اللغات تطورت شيئا فشيئا لتبلغ هذا المدى من الجودة والإتقان»(16).

كما أدّت المؤلفات والمراجع العربية القديمة -التي اغترف منها الناقد "حبيب مونسي" أفكاره ورؤاه، واتكأ على معارفها- دورا بارزا في مرجعيات الناقد، فهي تختلف بين البلاغة والنقد من جهة، وكيف استثمر الناقد هاته المراجع لطرح أفكاره وإبداء ميولاته النقدية من جهة أخرى.

ومن خلال المؤلفات التي استند عليها الناقد تظهر لنا هذه المرجعية التي تكشف لنا عن وجهة الكاتب الأساسية، ومنطلقاته الفكرية، ومتسباته البلاغية، ورؤاه النقدية، فكتاب: "فعل القراءة: النشأة والتحول"؛ الذي يتحدث فيه "حبيب مونسي" في فصله الرابع عن مبادئ القراءة –تأصيل الحداثة وحداثة التراث- وعن مبدإ التواصل الذي يستخلص صورته استنادا إلى التراث.

فيقول: «إن الصورة التي نقدمها لمبدأ التواصل نستخلصها من التراث أساسا، حين نصادف فيها ظاهرة لا تخطئها القراءة، وهي تتدرج عبر أعلام النقد القديم، بدءا من "ابن سلام الجمحي"، مرورا بـ"الآمدي" و"القاضي الجرجاني"، وانتهاءً بـ: "عبد القاهر الجرجاني" ينحو فيها اللاحق نحو سابقيه مستغلا ما أثبتته جهودهم من

نتائج، وكأنهم يصدرون عن اتفاق ضمني يؤسس فيه اللاحق جهده على جهد السابق، إضافة وتوسعا... وكأنها جهود تعتور الظاهرة النقدية. وقد اغتنت بما انتهى إليها»(17).

ليس هذا فحسب، بل نجده في كتابه: ""فلسفة القراءة وإشكالية المعنى" يعتمد على مجموعة مراجع من التراث نذكر منها: "كتاب الخصائص" لابن جني، وكتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر"، بالتحديد عند حديثه عن النقد وعلم التاريخ، مبينا رأي هذا الأخير من علم التاريخ الذي يصفه بـ: الفن، وكتاب: "مختصر الصواعق على الجهمية" لابن قيم الجوزية، و"لسان العرب" لابن منظور، وغيرها من الكتب النقدية والبلاغية.

وفي الأصل الأول من كتاب: "نقد النقد، المنجز العربي في النقد الأدبي" نجده يعتمد على مجموعة من النقاد واللغويين القدامى، كـ"ابن قتيبة" في الشعر والشعراء، و"الجاحظ" في البيان والتبيين، و"المرزباني" في الموشح، و"ابن جني" في الخصائص، و"الجرجاني" في الوساطة، و"ابن سلاّم الجمحي" في طبقات فحول الشعراء، وحازم القرطاجنّي في "منهاج البلغاء"، و"ابن رشيق" في العمدة(18).

وهذا ما يدلّ على تمسّك الناقد بالمراجع العربية القديمة وتأثره الشديد بالنقاد والبلاغيين القدماء. هذا وللناقد مقال منشور في منتدى "العقد الفريد" موسوم بـ: تقنيات الكتابة الإبداعية عند ابن قتيبة، يقول فيه: «إن طبيعة الكتاب تجعل مهمة البحث فيه منحصرة في مقدمته المقتضبة، التي حاول "ابن قتيبة" أن يسجل فيها منظوره الخاص لقضية الكتابة، وعليه كان التعرض لإشكاليتها مرصوصا على بعضه في شكل وصايا يتوجب على الدارس الفصل بينها، إن أراد أن يفرّق بين أخلاق الكتابة(19).

إن تأثر الناقد بالتراث النقدي والبلاغي يبدو جليّا من خلال تمعنه به وبسحر لغته ومعانيها، وهذا ما عبر عنه في تلك الأسطر التي كتبها تحت عنوان: الوجه الآخر للبلاغة العربية، إذ يقول: «كثيرا ما اعتقدنا أن البلاغة العربية إنما هي مباحث تكميلية تضاف إلى الصنيع الأدبي تحلية وتزيينا، وأنها غير معنية بالفكر إيضاحا وتجلية، وأنها من المحسنات التي يدفع بها الأديب إلى ساحة كتابته، لتكون زينة وبهرجة وتبرجا، غير أننا حين ننقب في المنطلقات الأولى للبلاغة العربية تتجلى لنا مسافات أخرى من الصراع التي كانت البلاغة إحدى أدواته الماضية الفاعلة من جهة، وكان هو وقودها المفعل لها من جهة أخرى، وأنها ما قامت في ألسنة القوم بلاغة وفصاحة واقتدارا لغويا، إلا لقهر الآخر وإفحامه، وأنها كانت في فم البليغ سحرا يجعل الباطل حقا، والحق باطلا، وأن كانت في لسان الحاكم مسوّغا لفتك وقتل وتشريد، وأنها كانت في ذائقة الدعاة سموما تنفث في ريقٍ وعلقما يداف في عسلٍ... وأنها حملت في أثوابها كل مظاهر الغلبة والقهر والإفحام ...

إن البلاغة حين يزاح عنها نقاب الجماليات تتحول سريعا إلى شيء يقتضي منا ضرورة إعادة النظر، وضرورة إعادة التقييم، وضرورة إعادة التفكير في طرق الاستفادة»(20).

إن إيمان "حبيب مونسي" وإخلاصه التام للموروث العربي القديم جعله ذا لغة نقدية عالية، وثقافة موسوعية بارزة، فهذا الموروث النقدي والبلاغي مكّن الناقد من إثراء ثقافته وبنائها، كما مكّنه من إتقان اللغة العربية، ونجد القرآن الكريم في الطليعة.

رابعا: المرجعيات العربية الحديثة:

كانت المؤلفات النقدية العربية المرجعيات المباشرة للناقد؛ لأنه لا يمكن لآي مؤلف أن يبدأ من فراغ، وذلك يستوجب عليه العودة إلى أطروحات سابقة، ربما لغرض إعادتها وإبراز وجهته الخاصة أو إتمام ما يبدو له ناقصا؛ لذلك نستطيع القول إن لكل كاتب مرجعيته الخاصة به، ومن هذا المنطلق تظهر مرجعية الناقد "حبيب مونسي" واضحة من خلال تأثره بالثقافة الإسلامية، مما كتبه نقاد أفذاذ ، كـ"سيّد قطب" و"أحمد شاكر"، و"محمد حسين"، و"مصطفى هدارة" وغيرهم، إضافة إلى الناقد الجزائري "عبد المالك مرتاض"؛ الذي يكون بدوره مرجعا مباشرا للناقد "حبيب مونسي"، فهو متأثر كثيرا بالأفكار والرؤى النقدية التي نسجها "عبد المالك مرتاض" عبر مساره النقدي، الذي قوامه المزج بين المناهج والانطلاق من التراث وصولا إلى الحداثة.

بالإضافة إلى مدحه لـ"مرتاض" واعتباره "القارئ الأنموذج" الذي يملك وعيا كبيرا لهذه المناهج النقدية الحديثة والمعاصرة، وهذا ما أقرّه في خاتمة كتابه: فعل القراءة النشأة والتحول، حين يقول: «وأخيرا، فإننا حاولنا تقديم صورة للقارئ العربي من خلال "عبد المالك مرتاض"، صورة نجد فيها الفهم المتجدد للتفكير الأدبي الغربي وأدواته، كما نجد فيها الفهم للتراث العربي القديم، وهي الصورة التي نريجها استفادة من الغرب على علم واعتزاز بالتراث على علم فلا يكون فيها استلاب المنخدع ببهرج الحداثة، ولا يكون فيها انغلاق المتشبث بالتراث وقداسته، نريدها وقفة للقارئ على مفترق طرق يشهد تفكيك البناء الفكري الغربي وتحجره، [أخيرا] في إجراءات جافة خالية من روح الإنسانن كما يشهد قلق الفكر العربي في محاولته نهج سبيل جديدة يزاوج فيا بين ماضيه وحاضره»(21).

ويشدد على هذه العلاقة النقدية الأدبية بينه وبين "عبد المالك مرتاض" حين يقول: «ولقد كانت صحبتنا لعبد المالك مرتاض من هذا المنظور صحبة ممتعة»(22).

ومن بين النقاد العرب الذين أثَّروا في مسيرة "حبيب مونسي" النقدية نذكر الناقد المصري "صلاح فضل"، فقد اعتمده "مونسي" مرجعية نقدية مباشرة، وذلك لتقاطع الآراء النقدية بينهما، وفي سبيل دفاعه عن النقد العربي من خلال مقاله في "الحوار المتمدّن": «ننطلق في تتبع النقد العربي من سؤال يطرحه "صلاح فضل" في تمهيد كتابه: في النقد الأدبي، إذ يتساءل إذا ما كان على الباحث في النقد الأدبي أن يميّز بين ما هو غربي، وما هو عربي... وهذا ما يدل على رؤية متقّدمة في كسر الحلقة المركزية التي يصرُّ البعض على تبنيها بجعل المنظومة الفكرية العربية مركز الكون... وهذا ما يوضّحه صلاح فضل حين يرى أن ما يطلق عليه البعض: الثقافة الغربية، لا يمثّل وحدة جغرافية أو تاريخية أو لغوية واحدة، إنما هي نتاج عصور مختلفة ومراحل زمنية ولغات وثقافات متعددة... ينبغي أن يُنظر إلى العملية برمَّتها وقدرة النقد الأدبي على الاستفادة والإضافة والإثراء من الكون الكلي إلى الكون الكلي»(23).

هذا، ونرى أن مشروع "حبيب مونسي" القائم على تأسيس نظرية نقدية عربية قائمة بذاتها يتشارك فيها مع النّاقد العربي "عبد العزيز حمودة" من خلال ثلاثيته النقدية (المرايا المحدّبة/ المرايا المقعرة/ الخروج من التيه)، التي بلورها "مونسي" فقي كتابيه: "نقد النقد، المنجز العربي في النقد الأدبي"، و"نظريات القراءة في النقد المعاصر".

إن التقاطع بين الناقدين يلامس الصواب، إلا أنها تبقى محاولة تحتاج إلى جهود نقدية أكثر للارتقاء بالنقد العربي.

خامسا: المرجعيات الغربية الحديثة:

استند "حبيب مونسي" في مجاله النقدي على خلفية معرفية غربية، فكانت بذلك الثقافة الغربية وأعلامها المرجع الحداثي الذي مكّن الناقد من الانفتاح عن المناهج والدراسات الغربية، وربما إتقان "مونسي" للغة الفرنسية كان له الدور البارز في الاطلاع والبحث في أسس وأصول منطلقاتهم الفكرية والنقدية.

وقد استعار من التعبير السوسيري: (غاستون باشلار وسيبلز، رومان جاكبسون، سكاربيت وغيرهم)، وهذا في الفصل الأول من كتابه: "نظريات القراءة في النقد المعاصر" من خلال قوله: «القراءة فعل مختص»(24). وأخذ من "رولان بارث" في قوله: «القراءة عل، لذة، ومتعة»(25).

هذا ونجد أن الأعلام والنقاد الفرنسيين كانوا المرجع الوحيد لـ "حبيب مونسي"، من أمثال: "تودوروف"، و"غريماس"، و"جيرار جينيت"، و"كلود ليفي شتراوس"، وغيرهم على الرغم من أن الانتماء العربي والثقافة النقدية العربية لم تمنعه من الاستزادة حينا، والإضافة حينا آخر.

لقد كان "حبيب مونسي" محبا للانفتاح على الأحر، بل كثير التشوق لمعرفة كل طارئ وجديد يمكن أن يبضيف للساحة النقدية العربية شيئا ما، وهدفه هنا التزود المعرفي، فكانت الثقافة الغربية تمثّل المسرح الذي يأخذ منه "مونسي" معارفه ورؤاه، بلا انصهار فيه ولا ذوبان في بوتقته.

إنَّ المحافظة على الهوية شرط أساسي عند الناقد، وخط أحمر لا يجب تجاوزه، ونلمس ذلك في قوله: «إن ازدواج القراءة العربية اليوم، وتراقصها على حبلين مشدودين إلى ماضي الغرب يجعل المطلب الحداثي أمرا مستحيلا تعترضه عقبة الزمن، وتحول دون فكاك عقدتهن وكل تصور للقراءة العربية خارج هذا الإطار مخادعة كبرة لا تنتهي نتائجها بسلام ما دمنا لم نحسم هذه العقبة، وليس حسمها بتخطيها، كما يطلب البعض لأن ذلك سيضعنا في ركب لا نملك فيه ذاتك ولا وجودا، فيفوت علينا المطلب الأصلي ويصهرنا في بوتقة الرب دفعة واحدة دون أن يكون لنا حظ المشاركة في فكرة مشاركة المعايش»(26).

انطلق الناقد "حبيب مونسي" في وصف حقيقة القراءة من منظور "دوسوسير" عند قوله: «إذا استعرنا التعبير السوسيري لوصف حقيقة القراءة نقول إنها نؤلف من الكتابة وجهين لورقة واحدة يصعب فصلهما بل يستحيل، ومنه أصبحت القراءة والكتابة وجهين لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما»(27).

كذلك استند "حبيب مونسي" إلى مقولة "باشلار" حول القارئ، وعلاقته بفعل الكتابة: «إن كل قارئ متحمس للقراءة يكتب في ذاته من خلال الفعل القرائي، رغبة في الكتابة، فلذة القراءة انعكاس للذة الكتابة، وكأنه طيف للكاتب»(28).

و"باشلار" في هذا الصدد، كان يقصد بأن كل قارئ يضمر في ذاته كاتبا، وهو ما نادى به النقد الجديد، وما اشترطه "بريخت" أيضا، عندما قال: «إذا كنا نرغب في الوصول إلى اللذة الفنية فلا يجدر بنا أن نستهلك جهد النتاج الفني من دون جهد، بل يتوجب علينا المشاركة الفعلية في إنتاجه»(29).

ومن النظريات الغربية التي تأثر بها الناقد "حبيب مونسي" وبمصطلحاتها ومفاهيمها نظرية التلقي، عند زعيمها "إيزر"، هذه النظرية التي حاول كثيرٌ من النقاد العرب تطبيقَ آلياتها الإجرائية، كـ"عبد الفتاح كليطو"، و"كمال أبو ديب"، و"شكري المبخوت"، وصلاح فضل، وغيرهم.

كما حاولت "أسيمة درويش" تطبيق هذا المنهج على نص شعري عربي، وهي قصيدة علي أحمد سعيد "أدونيس": هذا هو اسمي(*).

إن نظرية التلقي تعد رافدا من ورافد الثقافة الغربية التي وجدت اهتماما واسعا عند العرب عامة والمغرب العربي خاصة، حيث يقول "علي بخوش" في هذا الصدد: «كان اهتمام النقاد العرب بهذه النظرية بالغا خاصة بعد تواصلهم معهان واطلاعهم على كثير من خصائصها، وقد ترجمت هذه النظرية ترجمات عدة منها نظرية الاستقبال، "لروبرت هوليب"، ترجمة عبد الجليل جواد. ط1 ... ، وقد ظهر الاهتمام خاصة في بلدان المغرب الأقصى على وجه الخصوص.

ومن رواد هذه النظرية في العالم الغربي نجد مجموعة من النقاد منهم: "عبد الفتاح كليطو" في كتابيه: الحكاية والتأويل، والأدب والغرابة، و"حميد الحميداني" في كتابه: القراءة وتوليد الدلالة، وهو أيضا من مترجمي كتاب فعل القراءة لـ"إيزر". و"محمد مفتاح" في كتابه التلقي والتأويل، وأيضا "حبيب مونسي": القراءة والحداثة، وغيرهم كثير(30).

وعلى الرغم من هذا التأثر، إلا أن "حبيب مونسي" يؤكد على أسبقية العرب القدامى في المفاهيم والمصطلحات التي نادت بها جماليات التلقي اليوم، هذا ما يؤكده من خلال مقالاته التي نذكر منها على سبيل المثال: **نظرية التلقي، رؤية فلسفية أم منهج؟، كيف فهمناها؟.** وكذلك بعض مؤلفاته التي تهتم بنظرية التلقي أهمها: **القراءة والحداثة، مقاربة الكائن والممكن في القراة العربية.**

وفي مجمل حديثه عن أسبقية العرب القدماء لنظرية التلقي من خلال محاولة إرضاء الشاعر السامع قبل إرضاء نفسه، حيث يقول: «ويكشف لنا "ابن قتيبة" عن سلطة ذلك الحضور المؤرق الذي يرغم الشاعر على بناؤ قصيدته بناءً لا يرضي فيه تجربته بقدر ما يُرضي السامع، ويستدرجه إلى غرضه الأساسي، فهو يبكي ويستبكي الأحبة، ويتغزّل، ويصف الرحلة ومشاقها، ثم يخلص إلى الغرض الذي من أجله جاء، وهو في كل ذلك يتسلل من غرض إلى غرض برفق (حسن التخلص)، كي لا يثير حفيظة ذلك السامع الماثل في خَلَده كسلطة رقيبة لا تسمع له بالروغان(31).

هذا، وان انفتاح "حبيب مونسي" على المناهج والمفاهيم الغربية من أجل تقديم رؤية جديدة تتماشى وخصوصية النص العربي؛ لأن التكيف مع البيئة العربية لا بد من تطويع عارف بمشاربها وخصوصياتها، فهو لا ينفي حداثة مفهوم التلقي في النظرية الغربية، لكنه في الوقت نفسه يحاول البحث عما يقابله في التراث العربي. وهدفه صياغة توأمة بين نظرية التلقي الغربية، وجذور هذه النظرية عند العرب؛ لأن الانفتاح على الثقافة الأجنبية وكثرة قراءاته عنها لم يزده إلا اقتناعا بتراثه الأصيل، وعروبته الشامخة.

خاتمة

نستخلص مما سبق أن الخطاب النقدي الجزائري شهد طفرة نوعية وتحولات كبرى وعميقة، وبوتيرة متسارعة متداخلة المكونات والرؤى، هذه التطورات مسّت بنياته النظرية وطرائقَه الإجرائية، كما كان للتفاعل مع معطيات الثقافة الغربية الوافدة أثرا بالغا في ذلك التحول، وهذا ما أدى بنا إلى الوقوف على تجربة نقدية جزائرية لـ"حبيب مونسي".

ومن أبرز النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة نذكر ما يلي:

حاول "حبيب مونسي" أن يمزج بين التراث والحداثة، في تفصيله لخطاب نقدي عربي ممنهج، هذا ما يترجم ارتكازَه على أمهات الكتب التراثية، بالإضافة إلى الكتب المترجمة، مما خلق عنده حسا فكريا متعدد المصادر أنار به الساحة النقدية العربية.

إن المتتبع لتلك المنطلقات والمرجعيات التراثية والحداثية للناقد، يلحظ ذلك التمسك بالتراث، واستثماره قراءة واستنباطا وتناولا وتوظيفا، فهو لا يقل أهمية عن الفكر الحداثي الراهن.

تبين "حبيب مونسي" مدى استفادة الدرس النقدي العربي من التطورات الغربية، إلا أنه بيّن أن هذا الطرح (المنهج) لا يمكن أن يتماشى والدرس العربي؛ لأنه نابع من إيديولوجيا خاصة، لذلك وجب التنقيب في تراثنا بغية التأسيس لنظرية نقدية عربية خالصة.

زعزعت النقد الجديد بمبادئ المعيارية المتمثلة في الاستقرار والثبات في الحكم النقدي"، وظهور التحول والحرية والنسبية في الأحكام، وكان التحول من النقد إلى القراءة.

ليس الناقد عند "حبيب مونسي" من يترقب زلات الآخرين فقط، بل هو من يضفي جمالا على بياض الإبداع.

استفادة "حبيب مونسي" من خطابات غربية وعربية، مهّدت له الطريق أثناء تتبعه لمشارب نظريات القراءة من أمثال "ابن قيم الجوزية" و"الرمّاني" و"لوسيان غولدمان"، وأعلام مدرسة "كونستانس" الألمانية.

المصادر والمراجع:

- سعيد يقطين، الخطاب الروائي: الزمن، السرد، التبئير، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1997
- معن زيادة، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، بيروت، مجلد1، ط1، 1986م.
- عبد المنعم الحفني، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1999م
- سارة ميلر: الخطاب، تر: عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2016
- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، [د.ط]، 1997م
- عيسى بوفسّيوة، الخطاب القرآني، تمثل الكون (نمو النص القرآني)، مجلة الآداب واللغات، العدد 5، ديسمبر2005، جامعة الأغواط
- أبو القاسم، جار الله، الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، بيروت، [د.ط]، [د،ت].
- على بن محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تح: سيد جميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1985
- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتب الجديدة، بيروت، ط2004،1
- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، [د.ط]، 1997م
- صلاح فضل: النظرية البنائية في النقد الأدبي، المكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1978.
- حبيب مونسي، فلسفة القراءة وإشكالية المعنى (من المعيارية النقدية إلى الانفتاح القرائي المتعدد)، دار الغرب للنشر والتوزيع، [د.ط]، [د،ت]

- حبيب مونسي، مراجعات في الفكر والأدب والنقد، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2013.
- حبيب مونسي، هي كسائر اللغات تتطور شيئا فشيئا، جريدة النصر، ع15909، الأربعاء 29 مارس 2017م.
- حبيب مونسي، فعل القراءة النشأة والتحول، منشورات دار الغرب، [د.ط]، 2001م.
- حبيب مونسي، دراسة في المناهج، منشورات دار الأديب، [د.ط]،[د.ت]
- حبيب مونسي، تقنيات الكتابة الإبداعية عند ابن قتيبة، منتدى العقد الفريد، الجزائر، مأخوذ يوم 01 أفريل 2019م
- حبيب مونسي، فعل القراءة، النشأة والتحول، مقاربة تطبيقية في قراءة القراءة عبر أعمال عبد المالك مرتاض منشورات دار الغرب، الجزائر، ط1، 2001
- حبيب مونسي, نقد النقد (المنجز العربي في النقد الأدبي), منشورات دار الأديب, وهران, د ط
- رامي أبو شهاب، اتجاهات النقد العربي المعاصر، مجلة الحوار المتمدن، لندن، العدد 4475، 7 جوان 2014
- هذا هو اسمي، كتبها أدونيس سنة 1969م، في ديوان: "وقت بين الرماد والورد"، الذي نشر سنة 1970.
- حبيب مونسي، القراءة والحداثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، [د.ط]، 2000م

هوامش وإحالات المقال

([1]) سعيد يقطين، الخطاب الروائي: الزمن، السرد، التبئير، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1997 ص: 27.

([2]) سعيد يقطين، المرجع نفسه، ص: 19.

(*) المقال هنا يقابل الخطاب عند معن زيادة في الموسوعة الفلسفية العربية.

([3]) معن زيادة، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، بيروت، مجلد1، ط1، 1986م، ص: 771.

([4]) عبد المنعم الحفني، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1999م، ص: 598.

([5]) سارة ميلر: الخطاب، تر: عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2016، ص: 18.

([6]) نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، [د.ط]، 1997م، ص: 74.

([7]) عيسى بوفسّيوة، الخطاب القرآني، تمثل الكون (نمو النص القرآني)، مجلة الآداب واللغات، العدد 5، ديسمبر 2005، جامعة الأغواط، الجزائر، ص: 11.

([8]) أبو القاسم، جار الله، الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، بيروت، [د.ط]، [د.ت]. ص: 81-90.

([9]) على بن محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تح: سيد جميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1985، ج1، ص: 136.

([10]) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتب الجديدة، بيروت، ط1، 2004، ص: 36.

([11]) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص: 17.

([12]) نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، [د.ط]، 1997م ص: 07.

([13]) صلاح فضل: النظرية البنائية في النقد الأدبي، المكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1978، ص: 315.

([14]) حبيب مونسي، فلسفة القراءة وإشكالية المعنى (من المعيارية النقدية إلى الانفتاح القرائي المتعدد)، دار الغرب للنشر والتوزيع، [د.ط]، [د.ت]، ص: 06.

([15]) حبيب مونسي، مراجعات في الفكر والأدب والنقد، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2013، ص: 303، 304.

([16]) حبيب مونسي، هي كسائر اللغات تتطور شيئا فشيئا، جريدة النصر، ع15909، الأربعاء 29 مارس 2017م.

([17]) حبيب مونسي، فعل القراءة النشأة والتحول، منشورات دار الغرب، [د.ط]، 2001م، ص: 239.

([18]) حبيب مونسي، دراسة في المناهج، منشورات دار الأديب، [د.ط]،[د.ت]، ص: 43، 44.

([19]) حبيب مونسي، تقنيات الكتابة الإبداعية عند ابن قتيبة، منتدى العقد الفريد، الجزائر، مأخوذ يوم 01 أفريل 2019م في الساعة 17.30 مساءً، من الموقع:

http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=8007

([20]) حبيب مونسي، مراجعات في الفكر والأدب والنقد، مأخوذ يوم 01 أفريل 2019م، في الساعة: 18.00 من:

https://mohamed-boukerch.blogspot.com/2013/05/blog-post_13.html

(21) حبيب مونسي، فعل القراءة، النشأة والتحول، مقاربة تطبيقية في قراءة القراءة عبر أعمال عبد المالك مرتاضن منشورات دار الغرب، الجزائر، ط1، 2001، ص: 282.

(22) المرجع نفسه، ص: 211.

(23) ينظر: رامي أبو شهاب، اتجاهات النقد العربي المعاصر، مجلة الحوار المتمدن، لندن، العدد 4475، 7 جوان 2014م.

(24) حبيب مونسي، نظريات القراءة في النقد المعاصر، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، ط1، 2007، ص:28.

(25) المصدر نفسه، ص: 20.

(26) حبيب مونسي، القراءة والحداثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، [د.ط]، 2000م، ص: 20.

(27) المصدر نفسه، ص: 20.

(28) المصدر نفسه، ص: 20

(29) المصدر نفسه، ص: 21.

(*) قصيدة: هذا هو اسمي، كتبها أدونيس سنة 1969م، في ديوان: "وقت بين الرماد والورد"، الذي نشر سنة 1970.

(30) علي بخوش، تأثير جمالية التلقي، الألمانية في النقد العربي

(31) حبيب مونسي, نقد النقد (المنجز العربي في النقد الأدبي), منشورات دار الأديب, وهران, د ط, 2007ص: 12.